عيني يا عيني يا وطني
أتحامل ، هـذا الفجر على جرحـي واجيء
فـي وجهـي ارضـك مثخنـة واجـيء
أحمد دحبور

حميد ناصر الجلاوي

اغنية للماء اغنية للانسان

شعر (عبدالله الفاضل) انهم سيواجهونه بالتهمة ، سيقولون لـه :

ـ نحن في حل عنك .

قلبه ينسحق تحت هذا الهاجس الرهيب . تلمس جسده فوجد البثور حقيقة ، دماميل صغيرة وحمى تزحف على جسده بطيئة وتملأ كيانه . انطرح على فراشه على امل ان يقهر هذه المشاعر بلحظة عافية تمسح من كيانه كل هذي العذابات التي تفجرت مرة واحدة .

تساءل مع نفسه « ايـن صهوة الجواد من هذه الضجة الذليلـة يا عبد الله الفاضل ؟ » الريح خارج الخيمة تكنس الرمال وتعصـف بقماش الخيمـة وتهز الحبال ، احس بهـا تجأر بوجهه ، احس وكأنـه ينام ، يغفو لحظة واحدة فيطمئن هذا الجسد الذي سلمـه الـى العذاب .

دخل البدو وجلسوا متهيبين عند باب الخيمة ، اخذ يحدق الى عيونهم المرعوبة ، رآهم يقطعون انفاسهم دونه ، ادار بصره فيهـم واسبل جفنيه ، قال في نفسه :

« ـ انهم مفارقوك يا عبدالله الفاضل »

« مفارقوك ! » قالهـا مع نفسه ، اراد ان يطمرهـا لكنها تطفو الى تفكيره جلية ، ولماذا يطمرها وهم ينظرون اليه نظرات مشفقة ؟

حدث نفسه « استفيث بهم ؟ استفيث . وازحف على ركبتـي لو حدث ذلك ! ارضى يا عبد الله الفاضل ؟ »

عيونهم المشفقة تتلصص عليه ، قال له بعضهم :

ـ نحن ذاهبون يا عبدالله الفاضل .

ـ ذاهبـون ؟!

قالها بحزن .

ـ اعرف انكم ذاهبون ! لا ضير ، ذاهبون .

ـ الى الخابور .

ثم ابتلعت الصحراء خطواتهم خارج الخيمة ، وكلبه عند الباب يئن ، ينكسر انينه وعبدالله الفاضل يود لو يقوم ويهز الكلب، ويقول له : « لماذا تئن ؟ »

* * *

عندما اطل عبدالله الفاضل من باب الخيمة كان البدو قد رحلوا منذ زمن بعيد . قال مع نفسه « هل نمت طيلة هذه الفترة ام ان الحمى ابتلعتني كلية » ونظر بعيني كلبه وقال :

ـ اين كنت طيلة هذا الوقت يا شير ؟

الكلب يهز ذيله وينظر الى عبدالله الفاضل باشفاق ، عينـاه تغوصان فيهما شعور الصحبة الحزينة الدافئة .

الصحراء ممتدة مع بصر عبدالله الفاضل والشمس معلقـة ، حارقـة ، قال للكلب :

ـ ادخـل .

هز ذيله ودخل والشمس تشوي الصحراء. قال عبدالله الفاضل : « اين هم الان ؟ »

تذكر صغارهم وهم يلعبون والجمال ترغي والنسوة في الهوادج يتأرجحن وربما يبكين .

ـ يبكين على من ؟

ـ عليـك .

ـ على المجدور .. هذا هراء ، اي مجدور يبكين عليه ، ربمـا تتعلق على نفسك .

ـ كل .. كـل

ـ كل .. كل

ناوله كسرة الخبز والريح تعصف بالخيمة المهلهلة ، تهز الحبال، سمعها تصرخ بـه :

ـ اخرج !

مع نفسه يقول :

ـ الى اين ؟

والحمى تعصف به وبثور الجدري تنفزه كالابر ، يحس بهـا تنفزه في كل موضع ، جسده غابة من الابر الحامية .

احد الحبال تقطعه الريح ويظل يهتز والخيمة تبرك من احـد جوانبها . (شير) ينبح نباحا حزينا ، يمد صوته فيمتد مع الصحراء، احس عبدالله الفاضل ان قلب (شير) يتمزق ويتوجع تحت ريـح الصحراء ولهيب شمسها ، دنا منه ومسح على رأسه الذي ركـن تحت اصابعه ، احس بانفاسه المتهدجة والريح تعصف ، تجأر خارج الخيمة. قلبه تعصف به الذكريات ، القهوة المرة والدلال الحبيبة والفناجيـن واصابع رجاله تتناقلها والحداء البدوي والعتابا ، اراد ان يطلـق صوته بالعتابا غير ان السعال عاجله ، اخذ يسعل والحمى تخرج من منخريه والريح قطعت الحبال وهوت الخيمة مرة واحدة على رأسه ، خرج من تحتها وازاح طرفها ليخرج كلبه ، والوهن يسري في ساعديه، في الساقين والرأس ، اراد ان يصرخ :

ـ احبائي .. احبائي .

الدمع ينحبس والالم يتقهقر ، شد على اسنانه ، على روحه ، استعرض الصحراء بعينيه المليئتين بالحمى والعذاب .

الصحراء تمتد ، رآها تمتد الى الامام وكلبه مقع امامه ينظر الى الصحراء ، قال له :

ـ اراك تتذكر يا شير !

وهو الاخر يرى خفاف الجمال الطريـة الناعمة ، يراهـا تسم الصحراء والرغاء يبرعم كالزهور البرية ، راى ماء الخابور يلمع تحت الشمس كالمرايا ونباتـات الجرف ترقص مع خفق الريـح . احس بالنشوة ، هز كلبه ، صرخ مع الريح والصحراء : « هلي »

جر خطواته على الرمال المحترقة ، الخيمة المكبوة على وجهها في الرمل تبتعد وكلبه ينبح ، يمشي امامه ، وينبح ، قال له :

ـ اين هم الان يا شير ؟

الكلب ينبح ، تهزه عواطف السفر الخفية ، وتغمره سعادة ، اخذ يركض ، اطلق ساقيه مع الصحراء باتجاه الريح ثم عاد الـى عبدالله الفاضل .

نظر عبدالله الفاضل الى عيني الكلب الفرحتين والشمس الملتهبة فوق راسيهما تطاردهما ، تهبط عليهما كالسياط والعذاب المقـدر والحمى تلعب داخل عبدالله الفاضل والرمال الرهيبة تحرق قدميه . « تذكـر حصانه الادهم ، رآه يهز ذيـله ويـدق بحوافره على ضفاف الخابور والسرج المفضض ... » الرمل المحروق يدخل الى اصابعـه فيكوي مشابكها ، يحس بحرارة الرمل والشمس تصعد الـى راسه وتهزه ارتعاشة عنيفة ، امتدت يده الى القربة فسكب قطرتين فـي بلعومه اليابس الذي تملاه الرمال ، واراد ان يسكب من القربة فـي فم كلبه ، رآه يركض الى الامام ، احس براسه يـدور فتوقف ونظـر الى الشمس التي تفلتت في هينيه الى راسه كلسعة العقرب .

ليس غير الشمس فوق راسه والسماء الجرداء . تلفت الـى الخيمة « لم تعد هناك خيمة يا عبدالله الفاضل » والجدري الملعـون يكر عليه ، بثورة تنفاقم ، تعضه بالاف الاسنان الصغيرة الموجعة .

ومع نفسه يود لو يعد البثور ويعد معها عذاباته الرهيبة ، راسه يدور ويندلق الماء من احشائه ، يتقيا امعاءه ويسقط وتند منه صرخة تمتلىء بها الصحراء .

ـ شير !!

الكلب يقعي عند راسه ، يضع قائمتيه الاماميتين عند الراس ، يحركه ، يعوي ، فتعوي معه الصحراء ويستحيل عواؤه الى الـم ممض وطيب الشمس يندلق على راسيهما ، يقوم الكلب ويجر عبدالله الفاضل من ثيابه ، يجره والجسد الطريح يلتصق بالصحراء ، الكلب يعوي ، يتلوى ، يستدير حول الجسد الخائر ويعاود العواء .

يسحبه من ثيابه فيستجيب الجسد ، يرفع عبدالله الفـاضل راسه وتلتقي نظراتهما الحزينة ، تند عـن عبدالله الفاضل انّة :

ـ شير !

الكلب ينبح ، يتحشرج صوته ، يسمع عبدالله في تضاعيفـه العذاب ، يتحامل ويقوم ، يود لو يبكي ، لماذا لا يبكي ؟ يحدق بعيني الكلب فيرى فيهما الحزن الرهيب ، يتوكا على عصاه ويحس بالرمـل يتشبث بقدميه ، الرمل يثقل قدميه ، فيسحبهما ، يقول لنفسه : « اتود ان تسقط على وجهك وتنتظر حتفك يا عبدالله الفاضل ؟

ـ الماء .. الماء »

يتخيل الناس يسبحون في الخابور ، الناس المعافون من بثـور الجدري ، يمد اصابعه الى قفاه ، يتحسس بثور الجدري الناعمـة الملتهبة ، يـود لـو ينضـو ملابسه وينطرح على الرمل ، يعفـر جسـده بالرمل المحترق ، ويسحق عذابها ، يمسحها من جسده ، فيركض ، يركض حتى تنقطع انفاسه ، يسابق كلبه باتجاه الماء والناس ، يحس بلفح الريح الساخنة والرمال تملأ فمه وانفه ، الرمال الحامية والهاجرة عبر الريح والقاسية قسوة البثور التي يحمل .

يرى الصحراء لاول مرة بمثل هذه القسوة وفي نفسه يتساءل :

ـ لماذا كنت ذليلة وهينة قبل هذا اليوم ؟

وتدق باب ذاكرته صور اهله ، وهم يسحقون الصحراء ويذلونها ويطبعون على خد الرمل ، اثار القدم الادمية .

فتح فم كلبه وسكب فيه من القربة ، راه يتلمظ الماء ، كلبـه ينبح ، قال له :

ـ لا تنبح ، فهي الصحراء لا تورثك الا العطش .

ارتفع نباحه واحس عبدالله الفاضل بتوجسات (شيـر) ينبـح ووجهه باتجاه الريح . قال له :

ـ اظنك تسمع نبض الحياة .

راه يرفع راسه الى السماء ، يرفع راسه وينبح ، يسمع صوت الطيور ويسمع ضرب الاجنحة القوية للهواء .

مع نفسه فرح عبدالله الفاضل ، انتفض وهزته الحياة ، احس بانه قريب من الحياة والوجوه الادمية ، ود لو تنعطف هـذه الطيور الكبيرة القاسية وتسير امامه ويركض خلفها ، يركض خلفها حتى تنقطع انفاسه ، يركض ويقهر الحمى ، يتناسى الامها وعذابها ويركض خلف الطيور العنيفة السائرة باتجاه الماء والبشر والامان .

الطيور تظلل راس عبداللـه الفاضل ، يراها كبيرة قـاسية والمخالب تتدفق من الاصابع ، تشرع كالخناجر ، يحس بالرعب . قال مع نفسه :

« هو الجدري اللعين ، يدعوها ، يتربع صامتا على جسدي ويستقدم الخصوم ، الخصوم يقدمون نحوي ، الصقور هذه المرة » .

والرمال تشوي قدميه وتملأ ما بين جسده والثيـاب والشمس القاسية الرهيبة تحرقه ، يرى الصقور العنيفة تدور فوق راسه ثـم تنقض كالصاعقة ، واحدا واحدا ، غطى راسه بالعباءة ، كورها على راسه واخذ يهش بعصاه ويحس بوقع المناقير الحادة كالصنانير علـى هامته . تنقض ثم تندفع وينقض طير اخر .

« ايه يا عبدالله الفاضل ، الصقور هذه المرة !! »

الريح ، الصحراء ، الشمس ، العطش ، العطش للوجـوه الادمية » والصقور تنقض على (شير) تلدغه بالراس وتنشب المخالب بجسد الكلب فيعوي ، يتلوى من الالم ويعوي ، يقف على قائمتيـه الخلفيتين ويخمش الصقور ، يعضها وعصا عبدالله الفاضل تنقض على الصقور الطامعة بالكلب . الريش تذروه الريح ودماء الكلب تنزف ودماء عبدالله الفاضل تنزف ، يختلط الدم بالدم بالشمس والريـح والالـم .

يود عبدالله الفاضل لو يغني آلامه ،يطلق صوته فينادي اعمـاقـه التي يرتع فيها الحزن والترقب .

والصقور تدور دورتها اليائسة وتنقض بمجموعها ، تنقض عليـه هذه المرة ، يطرح بيديه في الهواء الساخن ويرى خياله يستدير على الرمل صغيرا مكوما بين قدميه ويكاد خيال الكلب يلتصق ببطنـه ، يهش بالعصا والصقور تخنق الهواء ، تلطمه ، يعوي الكلب ، يندفـع راكضا والصقور تفك حصارها فوق راس عبدالله الفاضل ، تطـير وراء الكلب ، تحيطه ، وتنشب معركة ضارية بين المخالب البربريـة والكلب المتعـب السابع في بحـر الصحراء الساخن يشـن ويخمش باظافره . عبدالله الفاضل تطحنه الذلة والالم ، يرى كلبه تتنـازعه مخالب الصقور وقدماه متعبتان ، يصرخ بنفسه :

« اين منك عبدالله الفاضل اليوم ؟! تحرك ، تحرك » .

لكانه يرى اهله يضحكون منه ، يبزغون فجاة وتملأ وجوههم الصحراء ، الوجوه السمر التي لوحتها شمس الصحـراء والرمـال والعطش .

« كاه .. كاه .. كاه » ، الضحك يملأ الصحراء ، الضحك المليء بالشماتة ، يحسهم يقولون في انفسهم ـ نحن الذين نفخر لا انت » .

ـ عبدالله الفاضل .. لا يقدر على حماية كلبه .

ـ لا يقدر !

ـ لا يقدر !

ـ لا يقدر !

الاصوات تزدحم وقدماه تجرانه ، اصوات البدو ووجوههم تملأ الصحراء ، تشمت به . يتحشرج الصوت في بلعومه ، يود لو يصرخ بالصحراء وبالنهاية المفجعة التي حلت به ، يصرخ :

ـ شير .. شير

والصقور تطارد شير الذي اندفع نحو عبدالله الفاضل تطارده الصقور والشمس والريح المجنونة ، يضع رأسه بين ساقي عبدالله الفاضل ، يحرك عصاه بوجه الصقور فترتفع بوجه السماء .. يبكي عبدالله ، يبكي ، ينحني على الكلب المدمى ، يضع رأسه في حجره ويفتش عن الجروح ، يضع الرمل الساخن عليها فيجفل الكلب، يتململ تحت اصابع عبدالله المرتجفة المليئة بالحمى والجدري الرهيب .

ينكوم الرمل من فمه على الصحراء المحترقة والرمل يندلق من بين اصابعه على جسد الكلب ، يندلق كالماء ويحس بانه يشم الماء المعفر برائحة الاعشاب ، يحركه بين اصابعه فيصلصل كالحصى ، ينسكب كالقلادة على الارض ، في رأسه يدور الماء « ماء .. ماء .. ماء » وشير راكن بين ذراعيه يحس به ، يرتجف وعيناه تدوران بعيني عبدالله الفاضل ، تدور في السماء التي انقشعت منها الطيور البربرية، لم يعد يسمع غير نعيب الريح وصليل الرمل ، يتمنى لو تهدأ الريح فيثبت عصاه ويتظلل بعباءته ويريح جسده الساخن المتعب ،الذي هزه الجدري والالم المض ويريح (شير) الذي لعبت به الرياح والصقور. تلفت ، مد اصابعه الى جبهته ، احس بنداوة الدم على الجبهة واثار المخالب .

الدم يلتصق بالاصبع كاثر الحناء مختلطا بالرمل الساخن. وبحزن تذكر ايام الصيد ،رأى نفسه يعدو على حصانه والكلاب امامه ، الريح تعبث بكوفيته وملابسه تلعب بها الريح كالذوائب والقلب فرح يريد ان يطير خلف الطريدة ، الطيور الهاربة اللذيذة والرصاص يندلع خلفها ، الرصاص يطير خلفها والكلاب تعدو ، يرى الطيور الصديقة تهوي فتنقض عليها الكلاب وتحشرها بين الفكين آبية بها والرمل تعفره دماء الطرائد ، استعاد ذاكرته ورأى دمه مرة ثانية على اصابعه المجدورة . قال لنفسه :

ـ اي ذنب اقترفت ؟

والصوت يأتيه من الداخل :

« مجدور .. مجدور »

قال مع نفسه « ـ اي ذنب ؟ انت تقول هذا يا عبدالله الفاضل. اما انت الذي تركت نواف وسرحان وغانم ، تذكرهم جيدا يا عبدالله الفاضل ... »

والكلب يعوي .. سمعه يعوي عواء غريبا ، دعاه اليه .

ـ لماذا تعوي يا صديقي ؟

واحس بانه يكذب على نفسه ، يحس بالرغبة بالنحيب مثل (شير) ليغرق الحزن الذي طفحت به الروح ، الحزن البلوري، دمعة واحدة ارادها ترطب هجير العذاب الذي يكويه . يسمع كركرات اطفال يلعبون ، ينصت ، يسترق السمع :

ـ نعيب الصحراء !

ويجر قدميه يتبع (شير) . يحس بالجوع القاسي يعصره « يمدون السماط وترادف صحون الثريد الفارق بالسمن والجداء مطروحة على ظهورها فوق اكوام الثريد في الصحون الكبيرة والوجوه تتلمظ ، تصبر وتريد ان يدعوها عبدالله الفاضل ، يمد يده الى الثريد فيمدون ايديهم النحيفة ، يمد يده ، ينقضون على الجداء ».

يحس بمعدته تخور داخله ، تضطرب ، اراد ان يمد كفه للرمل ليملأ الفم ، يسكت المعدة المجنونة ، يحس برأسه يعصف به الدوار، ينكفىء وينقي السقوط على الرمل بعصاه ، يفرزها به ويتصلب امامها .

يشعر عبدالله الفاضل بالوهن يدب الى اعضائه ويتملكه الشعور بدنو الموت « لحظة ويمد يده الدقيقة الى الصدر وينتزع القلب الراعش ، يعصره ويحيله الى رماد وتنكفىء يا عبدالله الفاضل على وجهك ، تعض الرمل الى الابد وتلتحم به » تتنابه الهواجس فيتصلب ويمد بصره مع الصحراء ، يحس باشواقه تقهر المشاعر المرعبة الخوانة ، يعصر جبهته بين اصابعه ويجر قدميه ،يبتلع ريقه ،يمتص الرمل « رائحة القهوة الدافئة تفوح ، تملأ الانف والمذاق المر يملأ الفم ، اللذة المرة تنزل الى البلعوم ، يمتص الفنجان ويضعه على غطاء الدله الصغيرة الحنون » .

بود في هذه اللحظة لو يناجي (دلته) الصغيرة في الليالي الدامسة ، يظل قبالتها والنار متوجرة . يمد يده اليها فيسامرها ، ينام قربها ، يتدفأ بالمذاق المر .

ـ اين هذا الرمل الوحشي من ذاك المذاق الحبيب والشمس تقف على رأسه يتحرك تحتها ، تطارد خطواتها الواهنة ، وكلبه يتمرغ بالرمل الملتهب ، يحك البطن والظهر المزق بالرمل ، ينظر الى الكلب يرى في عينيه التصبر الرهيب ، يتذكر عبدالله الفاضل (شير) وهو صغير . قال لنفسه :

« لماذا اتذكر ذلك ؟ »

« شير وضعته امه وراء الخيمة ، ظل يئن تلك الليلة وهي صامتة تلحسه . في الليل سمع الضجيج بعيدا عن الخيام ، خرج ، وجد الذئاب تنهش كلبته والدم مسفوح على الرمل ،وجده في الصباح و (شير) الاعمى الصغير يزحف على الرمل ويئن بحزن ... »

قال لكلبه :

ـ اعرف انك حزين .. حزين مثلي وتعذبك الاشواق والذكريات مثلي .

وادار بصره بالصحراء والسماء العادية الجرداء فوقهما ، كاد ان لا يصدق وحدتهما تحت السماء العارية وفوق الصحراء الثائرة الرهيبة والشمس تلسعهما ، تجد متنفسا لترميمها بالحمم « ليس ثمة ظلال ونحن وحيدان يا شير يا صديقي » .

اراد ان يقول له :

ـ اخي .. اخي

والدمع يبرعم في عينيه ، الدمع يغسل ماقيه وصوته يتهادى على الصحراء « احبابي ارحلوا للخابور وابعد : »

ـ اين هو الابعد يا عبدالله الفاضل ؟

يسأل نفسه :

ـ الجمال تسير بالهوادج والنسوة الصامتات والاطفال يكركرون والرجال ساهمون ، يراهم ساهمين ويتهامسون ويتذكرون :

ـ اين هم البدو الان ؟

يراهم يطاردون الطيور الصحراوية وتنقض على مخيلته الصقور الوحشية في عرض الصحراء فيجفل ويرفع رأسه المتعب ، يرى السماء ، يحاول ان يخترق غورها ببصره .

تراوده الرغبة بأن يصرخ :

ـ الهي .. الهي !

يصمت ، يحس بنداءاته الداخلية تنزلق الى اعماقه ونسمات باردة تنعشه ثم تسفعه الرمال والريح الساخنة .

اراد ان يتخيل حقيقة مسيرته هذه ، نظر الى نفسه :

ـ التتمة على الصفحة ـ ٧٥ ـ

اغنيـــة للمـــــاء اغنية للانســـان

ـ تابع المنشور على الصفحة ـ ١١ ـ

ـ اين انا سائر ؟

ـ أانا وكلبي حقيقة في عرض الصحراء ؟

ـ اجب يا عبدالله الفاضل ، انت الذي تسير مع كلبك ام انمسخت الى عذابات والام رهيبة .

سال نفسه وراودته صورة ايوب النبي .

ـ نبي الصحراء انت يا عبدالله الفاضل .

كلبه يعوي والاقدام تدب على الرمال « ـ بينك وبين ايوب دهر يا عبدالله الفاضل .

« ايوب على فراشه مطروح والزوجة تروح وتجيء ، تزق الخبز والماء وتمسح القروح اللئيمة والحمى ، الوجوه الادمية تظلله :

ـ اي وجوه تظللك يا عبدالله الفاضل ؟ »

والزوجة الان في الهودج ، تبكي ، هي الان تنوح ، تصمت ، تتذكر . ما جدوى ذلك ؟ بينك وبينها بحر الرمل والشمس والعطش والجدري ، وتذكر مخدعه الزوجي والفراش الدافيء ورائحة الطيب والدفء اللذيذ .

« ـ الدفء اللذيذ والعطر البدوي الذي يضوع من الجدائل »

الصحراء تشوي قدميه والريح تلعب بثيابه تنازعه عليها .

« يمد يده الى الجسد البض ، تلسعه الانفاس الانثوية اللذيذة

ـ ابي .. ابي

طفله يدعوه من تحت الدثـــار ، يجلس ، يتنحنح ، يخـرج مـن الخيمة وينظر الى السماء ، الليل يمد جناحيه ، يرى النجوم تنبض في السماء وتنبثق تباعا والنسائم الليلية الرطبة تملأ خياشيمه وتنعشه ويسمع من بعيد عواء الذئاب الصحراوية وحركات الجمال الباركة حول الخيام ويتثاءب وينظر الى السماء » .

الشمس الحادقة تلدغ عينيه وتتغلغل الى يافوخه والعطش يتصلب في داخله كالحجر . كلبه يتلوى ، يضطرب ويجلس بين قدميـه ، يتوجع ، يقمي عبدالله الفاضل ويظلل كلبه بثيابه ، ويمسح علـى راسه ، احس به ساخنا كالحديد الحامي .. قال له :

ـ تشجع يا صديقي ، تشجع !

« كلبه يموت تتشنج قوائمه ، يضطرب ويسقط على الرمل ،

ـ يسقط على الرمل ؟ » .

يتساءل عبدالله الفاضل ، اراد ان يطرد هذا الهاجس المفجع ، تصور (شير) يسقط على الارض ويرفس الرمل رفستين ثم يهمد ، الخوف يعصف به ، يندق اسفين في روحه والهاجس يكبر .

(شير) تحت ظلال عباءته يحرك راسه المتعب .

ـ احقا تسقط في الصحراء ؟

الموت يكبر يملأ صفحة السماء امامه ويسد دروب الرمل :

ـ لا .. لا .. لا ..

يصرخ عبدالله الفاضل يهز شير ، فيرفع الكلب راسه وينظـر الى عيني صاحبه ، يظل عبدالله الفاضل يصرخ :

ـ لا .. لا .. لا !!

الكلب يقوم ، يتمطى وينظر بجدية الى عيني صديقـه ويلحس انفه بلسانه الجاف المنقوع بالرمل .

يسكب عبدالله الفاضل الماء في فم الكلب ، يحس بـه يبتسم وتجتاحه رعشة الفرح . يربط فم القربة ويمسد شعره ، تند مـن عبدالله الفاضل هلوسة فرح صغيرة :

ـ صديقي .. صديقي

وقلبه يرقص ، يسبقه ، يريد ان يعبر لكلبه بعواطفه الظامئة الى الاذان البشرية .

قال لكلبه :

ـ احدثك ، احدثك لا ضير في ذلك ، قم اولا وساحدثـك ، اتذكر في هذه اللحظة قصة قديمة حدثت لكلينا ، اسمعني ارجوك ، البندقية على كتفي ، وكلانا نمزح ، اردت ان تركض الى طريـده ، شممت رائحتها ، قلت لك « اصبر » ففضبت ومـع نفسي اردت ان احشو جلدك بالرصاص ..

ـ من تكون ياشير ؟ يا ابـن من اكلت الذئاب امه ، يـا صغيـر يا اعمى .. »

وقفت وحركت ذيلك ، خرج الثعلب وقوست ظهرك وانطلقـت والثعلب المسكين اراد ان يلبد ، رايت قوائمك تطير والثعلب يضعف امامك ، انقضضت عليه وبرك امامك ، نظرت بعيني يومئذ اتذكر ! ربما لا تذكر فالجوع امضك ، الجوع ، رهيب ، رهيب ليس لنا الا ان ناكل الرمل ، والرمل ساخن والريح ساخنة ، قلت انك انقضضت عليـه ونظرت الي ، ضحكت بوجهك وذبحت الثعلب امامك فشخب الـدم ورفس الثعلب وانت تهز ذيلك والبندقية تهتز على كتفي ... »

والرمل يسفي عليهما والكثبان تنمحي مع الريح .

الكلب يخرج لسانه ، اللسان يندلق ويلهث جافا كقطعة الخشب يراه عبدالله الفاضل ينزف عافية لحظة لحظة ، ويتحسس جسده هو الاخر فيحضر العذاب ويحس بروحه تسحق ويستحيل الى جربوع صغير يقفز امام البدو وهم يركضون خلفه ، صغارهم يركضون ، يرمونه بالعصي والكبار يخفقونه بالنعال :

ـ جربوع .. جربوع .

صيحات الجوع البربرية تتابعه ، الكل يهرعون خلفه :

ـ جربـوع .. !

ـ كبير وله ذيـل !

ـ له ارجل دسمه !

ويحس بالعصي تنهال عليه فيزوغ ، يمسكونه من اذانه فيهرب والنسوة يمنين انفسهن باكله ، والكلاب تريد عظامه . يغوص عبـد الله الفاضل بجلده ، يختفي في حفرة الجسد المعذب ويرى الجدران المشروخة بالجدري والندم والدمامل والقيح والحمى .

يحس بان الجراب المعقود من فتحته ، وهو العاجز يتسلـق جدران هذا الجراب النتن ، صرخ في اعماقه :

ـ اريد ان اخرج ، اريد ان اخرج !!

نـداؤه يتقهقر في داخلـه ، تبتلعه دهـاليز النفس والجسد الضائعين وسط الصحراء .

« عبدالله الفاضل انت جميل اجرب ضال وسط الصحراء كلمـا يجتذبك الشرق تدفعك الريح ، تتقهقر ، اركض ان شئت او احفـر قبرك واضطجع . اتريد ان تموت بصمت مع نفسك ؟. » الكلب يعوي، صوته ييبس ، ينبح فينطلق صوته حادا حزينا ، يمدعنقه باتجـاه الريح ويطلق نباحه الموجع .

« تريد ان تسكته .

ـ الا تكف عن النباح ؟

ـ لا يمكن ، من قال لك انه سيكف ؟

يصرخ عبدالله الفاضل ، يريـد ان يسكت الكلب فبريح قلبـه الذي يعصره النباح ويطعنه كل لحظة . مع نفسه يقول : « الكلب ينكأ جرحي ، يستنزف عروقي دمها ، يرميني في ارض اقسى من هـذه الصحراء المجنونة » يحس به يوقظ الذكريات الحلوة والمرة والحزن والامل والشوق والمضارب البدويـة الحبيبة ووجـوه الرجـال الذيـن يحبهم .

يتذكر وجوههم واحدا ،واحدا،اللحى الصغيرة والشوارب والانوف والضحكات الرجوليـة الرنانة والحداء والرباب .

« اه الرباب ! اعزف ، اعزف يا ابن اخي يا مشحن العبد محمد وارخ لصوتك العنان ، عليك بالعتابا انهـا تداوي القلب وتجبـر خاطر

البدوي الذي تلعب به الريح والرمال والظما « الكبير » والنساء يخرجن رؤوسهن من ابواب الخيام والعيون الحور تقدح بالمحبة ويضحكن ، والريح تفضح العطر الذي يضمخ الشعر الانثوي الحبيب .

« لا تبك ، لا تبك ، ارجوك لا تبك ! .. »

خلص خنجرك من قلبي ياشير ، اما لي حق الرفقة معك ؟ اما تجمعنا الصحراء ؟

يكاد يحس به ينفلت من عقاله وتنفلت الاحزان الكثيفة من قلبه الصغير ، يتخيل عبدالله الفاضل قلب الكلب الذي يقاسمه رحلة العذاب ، يراه يطفح بالحزن .

« الرحلة آذته ، انطبعت الالام والى الابد في قلبه الصغير الدافيء بالمحبة للناس والخيام والجمال » صوت الكلب يجتع كمركب معطوب وسط البحر ، يعزف رويدا يبح تماما فيظل فاغرا فاه دون ان تحمل الريح ايما نامة من هذا الفم المفقود .

ـ اي صديقي اطبق فكيك ، اطبق فكيك .

واخذ عبدالله الفاضل يجار، اطلق لنفسه العنان (ابك يا عبدالله الفاضل ، ياحامل وزر الشيطان وصديد البشر)نواحه يصك الريح ويصل سمعه ويغرقه في بحر الدموع . يحس بدفء الدموع ، يغسل روحه المعذبة وجسده المعذب بالجدري والحمى والرمل وجهد الشمس الرهيب . يبسط راحته فيرى الدم المتيبس على الاصابع والطيور الوحشية تتحرك داخل الدم اليابس ، تخفق الهواء وتصعد الى السماء وتنقض عليه وعلى الكلب ، يصيح بجزع :

ـ لا .. لا .. لا

يهوي على الكلب ويحميه بذراعيه وينظر الى السماء الخالية العارية ينظر للشمس الواقفة فوق راسه ابدا ويحس وكانها خلقت لعذابه هو : « من غير الممكن ان تكون يا عبدالله الفاضل هدفا لهذه النار الرهيبة المعلقة بين راسك والسماء !؟ » وشعر برأسه يدور « هذه المرة يمتلىء جوفك بمرارة لم تعهدها من قبل ، اردت ان تقف على قدميك ، غير ان مرارة الحنظل في احشائك عصفت بك، فاستدرت ، استدرت كالرحى العنيفة ، غامت الدنيا ورايت كلبك يدور امامك والصحراء تدور مجنونة والريح والشمس والظما يتوحش داخلك والمعدة تدق ابواب الغضب ، تلعب لعبتها معك ..

ـ اه .. اه .. اه

تستدير تريد ان تثبت عصاك ، ترتعش اصابعك ، ولم تطاوعك عصاك فتفلت من بين اصابعك ، تحاول ان تجدها وانت تتخبط كالذبيحة وقلبك ينسحق ويخفق في صدرك ، ينهار جسدك على الرمل ثم تسقط على وجهك ، يفرق وجهك في الرمل ، تكمك الرمال الحارة، تحرق وجهك وتملأ الفم اليابس كالحصاة » .

نام عبدالله الفاضل على الرمل وجهه مدسوس تحته على الرمل والثياب تعصفها الريح الغضوب والشمس تقف فوق الجسد الطريح على الرمضاء ، استدار الكلب حول صديقه ، اخذ يئن يتشمم الراس والساعدين المطوحين الى الجوانب والقدمان العاريان اللذان حرقتهما الشمس والرمال ساكنان .

* * *

تعانق عبدالله الفاضل مع الصحراء ، الشوق العارم ! يشدهما، يمتزج ظماهما فيلتصق صدره بالصحراء الجافة ، وانفاسه تتهدج ، يزفر روحه تحت الهجير والريح تلعب بثيابه ، تنازعه عليها . العباءة تنتزع من الكتفين ، تخرج ويظل عبدالله الفاضل عاريا تحت الشمس .

في داخله تستحلب الرغبات ، النار تاتيه من الصحراء تتسرب الى بطنه واعضائه ، يحلم عبدالله الفاضل « بامتداد ظلال النخيل، واحة من واحات الاحساء ، الظلال الرحبة تمتد كانهار عذبة والسعف يلعب به النسيم ، الظل يمتد ويعمق وعبدالله الفاضل يغرق في نومه دقيقة تحت نخلة ظليلة .

قمرية تغني ، يسمعها تغني فيفتح عينيه ، يجافي النوم ويشاركها الغناء بروحه ، تشجيه فيتذكر المضارب ويطلق لصوته العنان : « هلي .. يا هلي !» .

تصمت القمرية ويصمت هو الاخر ، يرى الافعى تنقض عليها ، يصرخ عبدالله الفاضل من اعماقه ، يقوم ويتسلق النخلة ، يمسك بالافعى ، يفتح شدقيها وينتشل الحمامة ، الحمامة ميتة ، يضعها عبدالله الفاضل على الارض كالحزمة المبتلة والافعى تنظر اليه ،تضحك ضحكها يرن في دروب البساتين .

يصرخ عبدالله الفاضل :

ـ يا اهل الاحساء ، يا اهل القطيف ، يا ناس الصحراء .

صوته يخفت يشعر كمن يكم فمه بيد عنيفة والافعى تتضخم تستحيل الى حيوان خرافي يطلق ساقيه للريح ، يركض باتجاه الصحراء .

يقوم عبدالله الفاضل ، يركض خلف الكائن الخرافي ، يشعر من اعماقه ان الحيوان الوحشي في دربه الى اطفاله ومضرب عشيرته .

يحس بالجناحين ينبتان تحت ابطيه ، يطير وهو في السماء ينادي الكائن الوحشي ، يزعق به وسهام الكائن النارية ترميه ، يتصارعان ويستحيلان كلاهما الى رماد تذروه الرياح وتنبت ذراته شجيرات صحراوية صغيرة ، يتوزع الى اشواق صغيرة ، للطيور الصحراوية الضعيفة .

الريح الساخنة تدحرج عباءته والكلب ينقض عليها يجرها ويضعها بين قدمي عبدالله الفاضل الطريح على الرمضاء .

يطلق الكلب صوته ، فترن الصحراء مع استغاثته الرهيبة .

يقوم الكلب ويدور حول عبدالله الفاضل ، يعض اصابعه برفق ويحس به متخشبا يعوي كالثكول ثم ينام عند قدميه .

« عبدالله الفاضل على جواده الادهم في عرض الصحراء والبدو وراءه تدفعهم الحياة الى الماء والظلال . يرى جواده ينطلق والغزلان تهرب والريح تعبث بشعر الجواد والركض ينفخ بهما العزيمة خلف الغزلان المذعورة .

تختفي الغزلان بغتة ، فيصيب عبدالله الفاضل الخور والجواد يذوب تحته ، يجد نفسه على قدميه في عرض الصحراء ، والرمل يكشر بوجهه ، تضحك الرمال ، تصرخ ووجه زوجته يزغ ، قلبه، يفرح ، تند منه فرحة :

ـ ثريا .. ثريا !!

مخدعها يعبق بالدفء يراه من بعيد ويحس بيد تمنعه ، حاجز من العجز يمنعه ، يصرخ مستغيثا :

ـ هلي ، هلي ، اين انتم يا هلي ؟؟

وجوههم تحتشد على صفحة الريح والسماء ، الوجوه التي لوحتها الشمس ، يجارون بوجه الكائن الخرافي الذي قتل الحمامة. يراهم يندفعون الى الماء ، يدفعون جمالهم والنسوة عاريات يركضن الى الماء ، تدور في راسه الدنيا ، يقول لنفسه قامت القيامة ،يركض وراء عشيرته ، يرى النساء العاريات والاجساد الظامئة الى الماء ، يصرخ عبدالله الفاضل . الجمال ترغي ، تركض مجنونة والزبد الغضوب على مشافرها وعيونها حجرية رهيبة ، راها عبدالله تسحق الاطفال، يصرخ :

ـ لا .. لا ..

ـ ابني .. ابني

النسوة يرين اطفالهن ينسحقون تحت اخفاف الجمال ،يتشنجون ثم يخبطون باقدامهم الصغيرة خبطتين ويموتون ، وحمام واحات الاحساء يظلل الاطفال الميتين ، يقف ما بين الشمس وبينهم .

ـ اه ، يا حمام الاحساء !

يرى الكائن الخرافي الرهيب ، يمتشق عبدالله الفاضل سيفه بوجه الكائن ، يضحك الكائن ،يزار بوجهه :

ـ يامسكين ، يا صعلوك .

والحمائم كهامات الشجر فوق الاطفال والرجال ينقلون على اعقابهم ، تتعقبهم كلاب رهيبة بوجوه آدمية ، تفصلهم عن النسوة العاريات ، يحس بالخزي ويرى الصحراء تنطوي على النهر وتردم النساء، يصرخ :

ـ ثريا .. ثريا

تستحيل استغاثاته الى بروق صغيرة يابسة حواليه »

كلبه (شير) يعوي والعباءة تحت قوائمه ، قلبه يتقطر ، يقوم فيعض عبدالله الفاضل من دبلة ساقه ، يسحبه من ثيابه ، يود الكلب لو ينهره عبدالله الفاضل بدل هذه الضجعة الذليلة والشمس تجنح للغروب ، يمد الكلب بوزه بين الرمل ووجه عبدالله الفاضل ،يتشمم وجهه ، يحس بأنفاس صاحبه تلذعه .

يقعي عند الرأس وينوح ، يستحيل صوته الى نواح رهيب يقطر قلب الصحراء « يغطي الصحراء العشب ـ ينظر عبدالله الفاضل فيمتد العشب مع بصره .

المطر يبلل ثيابه ، يتساقط قطرات صغيرة ثم يتدفق مزنة ، والعشب يغطيه الماء ، يمسح قدميه بالعشب الندي ويشعر بطراوة العشب تحت قدميه .

يطلق ساقيه للريح ، يركض فوق العشب الندي ، قلبه يدق ، يدفعه الى الامام فوق العشب الندي اللذيذ ، يرى زهيرات بيضاء ترضع العشب ، يضحك تحت المطر ، يفتح فمه للمطر ، تغتسل اعماقه ورأسه وروحه بالمطر .

يرى الجداء الصغيرة على العشب والزهيرات البيضاء الصغيرة، تمتد يد رهيبة الى العشب فتمسحه وتمسح الجداء وتربد الصحراء بالرمل الساخن ، تحرق وجهه وثيابه تستحيل الى صفائح حامية . يركض والريح تطارده والثياب الساخنة تلتصق به ، تلتصق بالجلد الاسمر الظامىء يصرخ عبدالله الفاضل :

ـ لا . لا .. اريد الماء .. العشب ، الماء ، العشب . ينازعه الظما اخر القطرات الندية التي استقرت في احشائه . يحس بالسخونة رقيقة في البدء ثم تزحف رويدا ، تملأ كيانه ، ترتفع ، يتحسس جسده ، يقول لزوجته :

ـ ثريا .. السخونة تحرق قلبي !

ينظر في عينيها الوديعتين والفزع يملأهما ، تخرج من الخيمة ويتحسس عبدالله الفاضل جسده، تمد اصابعه على بثور صغيرة فينتابه الفزع .. قال لنفسه :

ـ اهو الجدري ؟؟

لقد حلت بك المصيبة يا عبدالله الفاضل ، راى نفسه ككلب اجرب تطارده المضارب والقرى ، يلهث والشتائم تتبعه وحجارة الصبيان ودعاء الشر من النسوة .

البثور تزحف الى اصقاع بدنه فيرتعش تحت رهبة الخوف . اصابعه ترقص ومفاصله تضطرب « كيف ؟ كيف تسمح لكل هذا يا الهي ؟»

يصرخ ويختنق ، استغاثاته من اعماقه تخرج، وجوههم تطالعه يدخلون واحدا واحدا كالقصابين الى الذبيحة ، سكاكينهم مشحوذة والوجوه القاسية الملامح الظامئة الى حكاية تحدد الحياة وتمنح رخصة الرحيل ، تنحنحوا ،قال اولهم :

ـ حكم المجدور العزل !

وانكمش عبدالله الفاضل ، تلقى اول خفقة من نعال حقير،عيناه غارقتان بالحمى ، اراد ان يغضب ، ان يصرخ ، ان يملأ هذا الفم بالتراب ، بأيما شيء .

قالوا له :

ـ انا مفارقوك يا عبدالله الفاضل .

والصوت يرن في اذنيه :

ـ مفارقوك ، مفارقوك ، مفارقوك ..

والعشب تمسحه يد الكائن الخرافي وحمائم الاحساء تقفبينه وبين الشمس ، يسمع في حلمه صوت كلب رهيب ينبح عليه في البستان والحمائم تطير » .

يتمطى عبدالله الفاضل ، يحس بالرمل يملأ فمه ووجهه ، يرفع راسه فيرى كلبه (شير) مقعيا عند راسه والعباءة تحت قدميه ، يسمعه ينوح :

ـ شير ، شير .

يصرخ برعب ، يسحب ساقيه المتعبتين ثم يقف وسط الغروب الحزين ، يلملم عباءته يثبتها على كتفيه ويسكب بقايا القربة في فمه وفم الكلب ، يتخطى على الرمل الدافيء اللذيذ ، يمسح عينيه، يريد جاهدا ، ان يتذكر احلام الساعات التي مرت ، يرى كلبه يهز ذيله بامتنان امامه والليل ينسحب رويدا فوقهما .

* * *

قدماه خفيفتان على الرمل ، يغلفه صمت عميق ، ليس هناك من صوت غير انسحاق الرمل تحت قدميه وفحيح ارجل كلبه .

نظر عبدالله الفاضل الى السماء ، راى النجوم الصغيرةتنبثق رويدا كالزهيرات الصغيرة والنور ينبض في النجوم ، والريح تخفت، تستحيل الى نسيم بارد انعش جسده المعذب ، احس بحيوية تتدفق الى جسده والاوجاع تنسرب ، المفاصل تستعيد عنفوانها والحمى تخمد . يقول في نفسه « لماذا لا تخمد بعد كل ذاك العذاب ،الحمى تخمد ، تخمد .. »

نظر الى كلبه فراى هيكله يضؤل في الظلمة ،قال له :

ـ ايين ذهبت طيلة نومي يا شير ؟

الكلب امامه يسير الهوينى ، اراد عبدالله الفاضل ان يحدثه وود لو تنحل عقدة لسانه فيفصح معه ،اراد ان يبثهمكنونات صدره ، ان يشركه احلامه المعذبة ، ويحدثه عن وجع القلب والذلة .

ندت منه صرخة كالوحشة « شير ، شير !»

« ـ لماذا لا يكون شير آدميا بلحم ودم ادمي » والصوت يدوي في راسه « شير .. شير » يمشي معه ، يحدثه :

(ـ بددت وحدتي ، منحتني دفء عائلة صغيرة ، انا وانت يا شير تحت مسقف منزل الليل ، اتريد ان تنبح ؟ ليس الان ! ليس الان ! ارجوك .

وعندما نصل الخابور ، نسبح سوية ، اغسل ادران الجسد وانظف فروتك من الرمل بالماء اللذيذ السلسبيل وابتنيي لك بيتا ونخرج سوية نطارد الطرائد في البراري ، اتسمعني يا شير ! ربما انت تفكر الان بصحبة اقرانك ، بنباحهم ، انت مستوحش وحيد مثلي في هذه الصحراء المترامية .. اه يا لك من مسكين ربطت مصيرك بي ، انا اجرب ، اجرب !! اتعرف هذا ؟ اذن اعرفه وانت معافى ، ليس غير الصحبة تجمعنا والموت والصحراء العادية).

تبلورت في ذهن عبدالله الفاضل افكار غريبة مفزعة،نظر الى السماء وراى انبثاق النجوم في تتابع دقيق وهي تنبض اضواءها والقمر يلوح من بعيد .

قدماه يتحسسان الرمل الدافيء والذي يبرد رويدا ، احس بالحمى تداعب جسده من جديد وتلمس البثور في الصدر والوجه ، احس بها كالحصى الصغيرة المؤلمة تحت الاقدام العارية .

صور الافاعي الصحراوية تراوده ، قفزت بغتة الى راسه ،امتد الخوف الى اعماقه « لدغة واحدة وانطرح » ويتصور ذهاب عذاب هذه الساعات الطويلة ، الرمل ، الريح والحمى والصقور والخيالات

المريضة .

(لا .. لا .. لا ارتضيها يا شير لا ارتضيها ويروح التعب المضني هذا هباء » .

قدماه يجرانه ، اوسع خطاه واستحال مشية الى ركض سد الابواب بوجه الخور واتعاب الحمى .

يرى (الافاعي تلتف على الاقدام وتمتد الى الساقين والبطن والعنق ومنها تقف على الرأس منتصبة تنظر الى السماء ،الافاعي تنظر اليه تحملق في عينيه وجسده ، تداعب البثور باجسادها اللدنة) يركض عبدالله الفاضل وكلبه يطلق ساقيه امامه ، يرى عبدالله الفاضل « الافاعي تحيط بكلبه وتفرز انيابها بجسده »يصرخ:

ـ صديقي .. صديقي !!

ويحرك عصاه بعنف ، يريد ان يسقط على ظهر كلبه ليسحق الافاعي ، تنهال فيعوي الكلب من الالم ، تظل يد عبدالله الفاضل معلقة فوق ظهر الكلب العاوي من الظمأ والم الضربة القاسية، يلتفت الكلب الى عبدالله الفاضل وينظر بعين غضوب ، يرى عبدالله الفاضل الشر في عيني الكلب ، يستيقظ من خيالاته المحمومة .

يصرخ في ليل الصحراء العارية :

ـ يا ناس يا بدو الصحراء ، اين انتم يا بدو الصحراء ؟والحمى تشتد داخله وتنزف عينيه والدمامل تنسج خيوطها حول الجسد المتعب . يتحدث مع نفسه « ضربت الكلب ، الكلب حبيبي ، رفيق رحلتي .. اخي ! اخي !

ـ قاسمتني الظما يا شير .

ـ وقاسمتك العذاب والطرد .

ـ والطرد ! اي والله يا عبدالله الفاضل ، اعطاك يده يوم غسلت العشيرة اياديها عنك .

ـ وضربته ..»

سمع الكلب يئن وهو يظلع امامه ، اراد ان يحمله . قال في نفسه (هو حزين ومتألم من مسلكي معه) .

ـ الا تستطيع ان تملك عقلك يا عبدالله الفاضل ؟) رأه الكلب يركض ، كالمجنون امامه وعباءته متمسكة باحد كتفيه ، والمسافة ما بينهما تبعد ، اطلق ساقيه للريح خلفه .

يسمع عبدالله الفاضل فحيح اقدامها وسط صمت الصحراء العميق ود لو يغني ، لو تركته الحمى لغنى :

ـ هلك شالو على مكحول ياشير .

ذبولك ..

رآهم بطون الخيام يقلعون العمد ويطوون الخيام وخيمته الصغيرة المعزولة ، قائمة ذليلة وهو ينظر بعينيه الى البدو وهم يربطون الخيام الى ظهور الجمال وهم يقيمون الهوادج للنساء .يرى زوجته تركب واولاده وهم ينوحون ، العشيرة تضرب جماله وهو ينظر من باب الخيمة نائم على فراش الذلة « اجرب ، مجدور ، اجرب » الصوت يملأ الصحراء « هو الكلام الحق يا عبدالله الفاضل »وصوته تحمله الصحراء ممتلئا باحزان القلب العميقة المخلوطة بمرارة البكاء.

« .. على مكحول يا شير وذيولك عظام الخيل ..»

وتراب مكحول لا ينساه ، السفوح الخضراء والماء المتدفق ، يقولون ان سر العشيرة دفنوه في مكحول (نحب مكحول كما نحب نسوتنا ونحج اليه ، تركونا يا شير وذهبوا الى امنيتهم في مكحول والعشب الندي والطيور الصغيرة الحلوة)،ارادان يغني فغص بالدمع . مع الليل انفتحت بوابة احزانه ، اخذ يجهش قال لنفسه .

ـ مم تبكي يا عبدالله الفاضل ، اتظن انك تمنح نفسك التصبر؟

واحس وكأنه غصن صغير اقتلع من شجرة وارفة الظلال ، انتزعوه ورموه في عرض الصحراء .

ـ انا الغصن الصغير المرمي في الصحراء والشجرة على سفح مكحول ، الريح تعذبني والرمل والظمأ واريد ان اثمر ،ان تكون لي ظلال .

ضحك في سره ثم فاحت الضحكة ، اخذ يقهقه ،يحس بالضحك يمتد الى كيانه فيهزه ..

كاه .. كاه .. كوه .. كاه ..

والكلب يجري امامه ، يركض سوية والانفاس تتسابق والحمى تنزف الراس ، يحس براسه يستحيل الى قطعة جامدة من نار رهيبة تعصف بها الهواجس المجنونة ، تتقطع رأسه كالبطيخة بسكاكين رقيقة والافاعي تركض امامه على الرمل ، تفح على الرمل وذوات الاجراس يزحفن راقصات ، يسمع الاجراس تدق ، الافاعي ترقص والاجراس تملأ الصحراء ، تسد الابواب ، الكلب يركض ، يصرخ عبدالله الفاضل :

ـ ابني .. ابني اين انت ،هلك شالو على مكحول يا شيرياسلوة، يا ابني ، يا صديقي .

يركض والحمى تعصف به والعرق يبلل الجسد تحت الثياب المعفرة بالرمل ، يلتصق الرمل بالثياب بالبثور ،يحك عبدالله الفاضل البثور فترطب اصابعه بالقيح :

ـ اخ .. اخ !

يتألم ويركض ، يحس بيد تدفعه الى امام والكلب يركض كظل صغير ويمد ساقيه الى امام .. الصحراء تستعيد نفسها وتمتد من جديد امامها ، والافاعي تتكالب ، يرى عبدالله الفاضل :« جبل مكحول مطلي بالافاعي الصغيرة تقدح بالسم والشر ولدونة الاجساد تتزحلق عليها اخفاف الجمال على السفح ، يرى الجمال والناس يتزحلقون على نعومة اجساد الافاعي والجبل يقف مرة واحدة كالمارد ، ينتصب كالافعى الكبيرة الهائلة وينهال على الجمال والخيل والنساء ،يرى اكف العشيرة تمتد متذرعة مستغيثة ، يد طفلة ويد زوجته ثريا وايدي الشيوخ المتعبين » والعرق يتصبب مختلطا بالرمل والتعب ـ يود لو ينهال بعصاه عليه ، يسكت الالم ، يعيده الى صوابه . يقول لنفسه :

« اه .. منك يا عبدالله الفاضل ، يا رجلا مملوءا بالجسارة، انت مجنون ، مجنون ، ما ضرك لو بقيت تحت خيمتك الصغيرة ما ضرك ؟.. ستاتيك قافلة وتتوسلهم .. سياخذونك !

ـ تفو ! الا تستحي يا ؟ .. اود لو اسحق هذا الفم الغادر ..

ـ غادر ؟! اين تحملك قدماك .. الى أين ؟!..» بذهنه المشوش يحاول عبدالله الفاضل ان يحسب المسافات التي قطعها ، والشمس يستعيدها في ذهنه ، فيحس بلسعها في عينيه ورأسه ويحس بطعم الرمل الزجاجي الساخن في فمه .

كلبه يعوي ، يسمعه يعوي عواء رهيبا :

ـ انه خائف .

ويتوقف خلف الكلب المنتصب ، يمد بصره وسط الظلمة ،يحاول ان يعيد عباءته الى كتفه ثانية ، يجلس على ركبته ويمد بصره والكلب يلحف بالعواء ثم يستحيل عواؤه الى نباح شرير هائج .

« ماذا تظن يا عبدالله الفاضل سيداهمك الان ؟»

ليس غير الضباع !! « هذا هين » ،

نباح الكلب يملأ الصحراء ، نباحه يمتد ويستحيل الى ايماء باقتراب الخطر :

« تصبر يا عبدالله الفاضل .. اصغ سمعك وافهم يا عبدالله ما انت فاعل بالموت الذي يتربص بك ؟»

كلبه ينبش الرمل ، يحثوه بقائمتيه ، تتصلب روح عبدالله الفاضل وهو واقف خلف كلبه ينظر بحذر الى امام .

« ربح الموت تهب عليك يا عبدالله الفاضل ، الصحراء تبعث سكانها اليك ، ما انت فاعل يا وحيد الصحراء والليل ؟»

يتحسس عصاه ، يحاول ان يهيأها او يندفع بها الى امام . الدماء تصعد الى رأسه ، ترتعش اعضاؤه والراس الساخنة تكبر، تتسع كالصحراء ، النباح يصك سمعه ، يقول في نفسه :

« الكلب يستغيث يا عبدالله الفاضل » .

وبثور الجدري يلسعها برد الصحراء والليل والدم يصعد عنيفا وترتجف الفرائص .

يتفوس الكلب وينحني عبدالله الفاضل ، يمد بصره مع امتداد الصحراء ، الاشباح تقترب ، يرى خطواتها الرصينة المرعبة تتقدم اليه :

« الذئاب الصحراوية يا عبدالله الفاضل » يقول في نفسه ويحرك عصاه ، الحمى تأخذه ، تطبق عليه ويستحيل برد الصحراء الى حمى قاسية .

يسمع خشنشة المخالب على الرمل والزئير المخيف ينفث بوجهه، الكلب يتصلب في مكانه والنباح يتحشرج في بلعومه ،يقف الكلب بين عبدالله الفاضل وبين الذئبين الصحراويين ، يقول لنفسه « ارفع عصاك يا عبدالله الفاضل ، تحدث مع الكلب المعذب ، اسحق المخاوف الذليلة ، مد يدك الى اعماقك ، اين هي ايام العز يا عبدالله الفاضل؟ البدو تركوك ، تغربت في فيافي غريبة ، بالامس ركضوا خلفك، ذراعك تمتد واذرعهم خلفك ، اذرعهم خلفك ، يهجمون ! والبدو النجديون يهربون امامهم » .

يلعب بعصاه والذئبان يهجمان على الكلب ، يتقاسمان راسه، وينشبان المخالب الوحشية والاسنان البربرية ، يسمع فحيحهما كالخناجر تطعن قلبه وكلبه يعوي ، تمزقه المخالب ويعوي ، تهوي عصا عبدالله الفاضل على الذئب ، يجار ، يقوس ظهره ويبتعد عن الكلب مطلقا زئيره الخانق يجمع الذئب هيكله وينقض على عبدالله الفاضل ، يطعنه بصدره ، يسقط عبدالله الفاضل على ظهره والذئب متربع على الصدر ، المخالب تنغرز في الوجه والانياب تقترب من البلعوم ، يمد عبدالله اصابعه المحمومة المرتعشة الى عنق الذئب، يطبقهما ، يضغط فيسحب الذئب مخالبه من الوجه ،الفم ينغلق تحت ضغط الاصابع المحمومة. « تصلب .. تصلب يا عبدالله الفاضل، اضغط اصابعك بعنف ، بعيد عن الاهل والمضارب والسيوف والعصي والنداءات الشجاعة ، لو تستغيث لا تنشق الصحراء عن ذراعيه، او عن صوت حنون يغدق عليك الفرح الممزوج بالطمأنينة .. اضغط يا عبدالله الفاضل اصابعك .. اضغط !!!

تتراخى قوائم الذئب وصوته يحشرج ، يشعر عبدالله باصابعه تتصلب وكأن هناك من يشدها بعنف على عنق الذئب ، روحه تشق عنان الفرح ، والفرح يستحيل في احشائه الى انتشاء وحشي رهيب، يطلق اصواتا رهيبة غريبة تحطم صمت الصحراء . ينقلب الذئب على جنبه ويسحب عبدالله الفاضل جسده ، ينتفض كالطائر ويقف على قدميه ، يمسك بعصاه وينهال على راس الذئب .

يجار الذئب .

« اضرب .. اضرب يا عبدالله الفاضل ،يقول عبدالله لنفسه »

يحس بنشوة النصر والذئب المجندل تحطمه الضربات القاسية . عبدالله الفاضل يمتد مع عمق الليل الى الاعالي ، يشعر برأسه يلامس النجوم المعلقة بين الليل والسماء (وحيدا يا عبدالله الفاضل في هذه اللحظة كائن سقطت من السماء او انشقت عنك الصحراء ، لا ام ، لا اب ، لا ولد ، لا وشائج قربى ، امك الصحراء والريح والليل البهيم).

برفع ذراعيه المتعبتين للمرة الاخيرة وتنهال العصا بكل احزان القلب والغضب الرهيب على رأس الذئب ، يجار الذئب ، يئن بالتياع ، يتغلغل الى اعماق عبدالله الفاضل .

يقول مع نفسه :

(تموت . ضربة اخيرة وتصفي الحساب يا ذئب الصحراء .غدا ستشرق الشمس عليك ، منكفيا على الوجه ، تنام نومتي على الرمل وتعبرك الريح)»

انهالت عصاه للمرة الاخيرة على الراس بكل عذاب الروح . تشنج الذئب وانطرح على الرمل . مسح عبدالله الفاضل العرق عن وجهه ، لامس الرمل الملتصق بالوجه ، بالدم السائح من الوجه وشعر الذئب ملتصق باصابعه ووجهه والدم . يسمع كلبه يئن ، يعوي من العراك والذئب يصارعه ، يندفع اليه بوحشية رهيبة بكل ظمأ الصحراء وجوعها .

يلتفت اليه عبدالله الفاضل :

ـ حانت منيتك !

في نفسه يقول (يا لروحي المعذبة الغارقة في نجيع الضنى).

الكلب يناديه ، يستغيث بعواء مبحوح مخيف .

ـ تصبر يا شير .. تصبر ، الصحراء العودة تستنفر الشمس والصقور والذئاب . في داخله يحس بانه يتحول الى كائن وحشي رهيب ، الذئاب منحته الوحشية ، يشعر وكأن المخالب تنبثق من اصابعه المحمومة والعصا تلتقي بكفه ، يهزها ويوجع الذئب المتعب البربري على ظهره .

يعوي وينتفض عن الكلب .. يتراجع ، يقف قبالتهم ، يفمرهم صمت ليلي عميق ، ليس غير لهاث الذئب المتوجع والكلب الجريح وانفاس عبدالله الفاضل المتهدجة .

ريح الصحراء الباردة تغمرهم ، تمسح الحمى عن رأس عبدالله الفاضل . يتقدم متعبا مترنما ، يرفع عصاه ، يتوجس الذئب خيفة فيرتد والكلب يقف ويطلق نباحه المشروخ ، خطوات عبدالله الفاضل تتابع الذئب وعواء الكلب كالسياط يتابعه ، يطلق ساقيه للريح، يصرخ عبدالله بفرح وحشي :

ـ يا ذئب ، يا ذئب !

يركض وراء الذئب كالمسوس ، يحس بهاجس وحشي يدفعه. يد خفية تدفعه ينسى الحمى والبثور النجسة الملتصقة بالجسد ، ينظر خلفه ،يرى كلبه يظلع ،يتوقف عبدالله الفاضل يقترب من الكلب، يحس بنسمة باردة تمسح الجنون الذي ملأ رأسه بغتة ، ينحني على رفيق سفره .

ـ شير ، شير .. اه يا صديقي . ساقك الجريحة تعيرني ، تذلني يا شير .

ويحس بالدمع يملأ مآقيه .

مع نفسه يقول « تلك الدنيا يا عبدالله الفاضل حتى استعدت الذئاب على كلبك .. اه يا ذلة الروح » . ينحني على ساقه ، يحسها منسحقة تتدلى كالخرقة والدم يلتصق بكفه ساخنا يملأه الظمأ . ينضي عبدالله الفاضل عباءته ويشقها ، يضمد ساق كلبه الجريحة ويسمعه يئن مع حركة اصابعه والخرقة . يقول مواسيا :

ـ تصبر يا صديقي تصبر ، هذا حال الدنيا .. يا شير ! يسمع اصوات البدو تنبعث خافتة من اعماقه ، ينصت الى الاصوات الندية بالرفقة تنبعث من داخله رائقة ، يلتفت ، يمد بصره مع الليل، ليس غير امتداد الصحراء وهسيس ارجله وكلبه شير ، يقفان وينصت عبدالله الفاضل لاصوات البدو في اعماقه .

يسمع صغار البدو يلعبون بالعصي وحوار ينادي امه .. « اه يا رائحة الوبر الندي بالماء وندى الصباح » . يتشمم ريح الصحراء الباردة ، تبرعم في اعماقه فرحة صغيرة دافئة والاصوات الحنونة تنفتح في صدره كالزهيرات البرية التي ترعاها على اكتاف السواقي، الاصوات تتجسد في اعماقه ، ثغاء الاغنام وماعز يمأمىء وحصان يشق سكون الليل بصهيله (يتخيل حصانه الادهم) . يحدث عبدالله الفاضل كلبه :

ـ اسمع الاصوات ياشير ؟ الاصوات الحبيبة اليك اسالك بالصحبة والعذاب ، هل انفتح صدرك لهذه الاصوات الحبيبة ؟ اعرف انك تتألم ، سافك الجريحة تعضك بالالم ، تصبر . عندما لا تصبر يا شير فلن تلاقي الخابور ولا الماء والعشب والناس الذين يهشون بوجوهنا فرحين بلقاء انسان غريب . اه يا روحي ، سينزلوننا ضيفين ، سأقول لهم .

ـ هذا كلبي انزلوه منزلة تليق به ! اقول لهم :

« انه شير ! »

وبعد الخابور يبدأ الناس والماء والعشب .

يرى عبدالله الفاضل النجوم تنطفي في السماء تباعا ، ينظر لها مليا ، يشد على اسنانه ، يغرس عصاه في الرمل ويلملم عباءته ثم يركض والكلب يضلع خلفه والريح الباردة كليالي الشتاء ، يحدث نفسه :

(ستبزغ الشمس يا عبدالله الفاضل ، تصعد الى كبدالسماء رويدا رويدا ، تصهرك وتزيد من عذابات الجسد الموجع ويسيل الفيح من البثور على جلدك ، اركض يا عبدالله الفاضل ، اطلق سافيك للريح !)

يسمع عبدالله الفاضل هسيس الرمل تحت قدميه الصافقين للرمل ، يحس بكلبه ينأى عنه فيقف ليلحق به شير ، يضع الكلب على رقبته كالجدي الصغير ويركض .

يركن الكلب على رقبة عبدالله وينفث انفاسه الدافئة في فروة رأس صاحبه .

يرى عبدالله الفاضل اول خيوط الفجر ، يحس بها تدخل الى اعماقه كحسوة ماء بعد ظمأ طويل ، يفرح وتأخذه نشوة فيدور والكلب على رقبته راقصا يضرب الرمل بقدميه العاريتين ضرب راقص ويستدير نحو الشمس التي تنثر خيوطها الاولى ، يركض الى الامام الى الاصوات التي تنبعث كالشوق واللقاء في اعماقه .

يكاد يطير وقلبه يخفق في صدره كالحمامة التي تشق نحو السماء عاليا عاليا .

تتقطع انفاسه فيتوقف عن الركض ويسير على مهل ، يرفعراسه نحو الكلب ثم ينزله على الرمل ويسيران معا على مهل ، يقولعبدالله الفاضل :

ـ احس بالتعب ، لولا ذلك لحملتك بعيدا . ويبتسم لنفسه ، ثم يراقب الكلب الغارق في خيالات بعيدة .

تخرج الشمس رأسها ،يراقب عبدالله الفؤابات الاولى ،يشعر بالدفء بعد ليل بارد رهيب ، يركض نحو الشمس ، تتقطع انفاسه، يرمي بنفسه على الرمل ، يتمرغ فيه ويحثوه كطفل صغير بوجه الريح الى السماء .

الكلب يظلع خلفه ، يقوم ويرتمي مرة اخرى ، ينضو ملابسه ويحثو الرمل على الجسد ، على القروح ، على الظهر ، يشعر بسعادة والرمل ينساب على ظهره ،يدغدغه ، يلتذ لانسياب الرمل على القفى، يلبس ثيابه ويثبت عباءته في ساعديه ،يركض والعباءة كالشراع والكلب يضلع ، يلتفت اليه ، يناديه .

ـ اوي .. هو ... وو ...

يفتح ذراعيه للكلب المزهو الراكض رغم جراحاته خلف صاحبه، يقعي بين ذراعي صاحبه ثم يركض عبدالله الفاضل ، يتوقف ، يتفحص الرمل والتراب والروابي البعيدة ، يقترب من كلبه ، ويهمس بأذنه بسعادة طفولية :

(الناس .. الناس)

يهز الكلب رأسه ،

ـ الناس ! الا تفهم ؟.. انهم هناك

ويرغي كالبعير ، يتخذ مساره نحو الروابي ، يحس بالكلب يعوقه عن التقدم الى امام والشمس تسطع ، ترتفع في الافق .

يضع الكلب على رقبته من جديد كالجدي الصغير ويركض يتأرجح الكلب على كتفه كطفل مدلل صغير ، ساقه تخشخش يحس بالماء يقترب وكانهما يسعيان الى بعض .

يتخيل الماء وهو يتمرد على الضفتين ويخرج ساعيا في الصحراء نحوه ، فيتلقاه بالاحضان ، راكضا والجسد المجدور ينزع عنه ظلامات المرض وقهر البثور المبثوثة كالعار في الجسد والحمى المتغطرسة في عظامه .

يسحق عبدالله الفاضل الهواجس ويركض وارجل الكلب تشد أزره ، يشدها الى صدره ، يشعر بالظما يخشب بلعومه .

تقترب الروابي ويسمع عبدالله الاصوات :

(احقا هم الناس يا شير !؟ »

يركض بعنف الحياة ، يشعر بالمودة للبشر تغمره حتى يقشعر بدنه من الرغبة الى البشر .

روحه تهتز باللقاءات القريبة :

(ارى الوجوه الحلوة ، الندية ، المليئة بالنخوة ، اسمع يا شير ، حبيب قلبي ؟).

تقترب الروابي ، يصعد عبدالله الفاضل بانفاسه المتلاصقةيشرف على البعيد ، يرى امتداد السهب المليء بالعشب الاخضر ، ليس ثمة بيوت ولا حيوانات ، طيور فقط تحلق على انخفاض فوق العشب.

يهبط عبدالله الفاضل من التلة الصغيرة ، يركض نحو العشب يضع الكلب على الارض ويتحسس العشب بقدميه ، يرتمي علىوجهه ويشم رائحة العشب ، يحس بها تنفذ الى روحه ، تزهر روحه، يقتلع حزمة من العشب ويلوكها والكلب يتربععلى العشب ، ينظر الى صاحبه بفضول .

يحمل عبدالله الفاضل الكلب ويركض ، يركض كالغائب العائد الى مضارب لاهله ، يستحث اقدامه ويدعو قوى سحرية ان ترفعه وترميه في مضارب قومه .

يركض نحو الماء ،يراه يلتمع تحت الشمس ، يصرخ :

ـ الخابو ... ر !

يشق صوته عنان السماء ويعبر السهب والضفاف . يركض ويحس بساقيه وكانهما يتخشبانبالنهر وكأنه يبتعد نحو اصقاع بعيدة .

« الماء .. الماء .. النهر .. الخابور .. اه الخابور »

يركض . يزهر ، تبرعم روحه ، يغرس قدميه في التراب الندي، في طيف الضفاف ، يركض بشوق ، يشرف على الضفة ، ينبهر بانسياب الماء والتماعه تحت شمس النهار .

يصرخ :

ـ الماء .. الماء !! الناس .. الناس !!

ثم يرتمي مع كلبه ويتعانقان مع الماء بعد غياب طويل .

واسط (العراق)

صدر حديثا عن دار الطليعة

اليسار الفرويدي

ولهلم رايش ـ جيزا روهايم ـ هربرت ماركوز

تاليف أ . روبنسون ترجمة : لطفي فطيم وشوقي جلال

ـ مراجعة وتقديم دكتور قدري حفني

يعتبر هذا الكتاب فريدا من نوعه حيث يربط بين ثلاثة من عظام المفكرين في مدرسة التحليل النفسي على اساس من موقفهم التقدمي من قضية الجنس ومن قضية التقدم الاجتماعي .